آراء
في العظماء والعظمة
— ٢ —
لأميل لودفج

العظماء من الرجال إنما هم عظماء في الحجم والشكل . ذلك إلا ان لهم من المحامد والمذام ما لرجال العاديين مع فارق واحد هو زيادة الحد في كل شيء ومقداره . فاذا درست النفسية كانوا هم والرجال العاديون بمنزلة سواء (بيرون)

فقاطعته « دولي » قائلة بصوت عال : قل لي بحق السماء . لماذا لا يدور حديثك إلا حول هؤلاء الساسة القدماء كأن ليس بين رجال الفن أي عظيم ؟

— هذا ينقلنا الى ميدان آخر . إنّ المفكرين والمصورين والشعراء الذين يخلّفون وراءهم آثاراً باقية قد يسهل على المرء أن يعرف أقدارهم كأفراد من عظماء الفكر أكثر من معرفته بأولئك الذين يتقرّى المرء أقدارهم من ثنايا حوادث قد فنيت وزالت . فنحن لا نعرف شيئاً عن « هومير » سوى انه كان عبقريّاً « هذا إذا كان « هومير » هذا قد عاش يوماً ما على ظهر هذه الدنيا » .

ونحن إذا لم نكن قد عرفنا أبداً شيئاً عن « شكسبير » أو « موزار » فقد يبقى لنا طابع العظمة لرجلين مجهولين .

ولو أنّ ألحان « شوبير » أو « بيتهوفن » قد انحدرت إلينا مجهولة المولد والنسب لقلنا عن منشئيها إنهم عظماء . وذلك كما نسمي الجندي المجهول عظيماً دون أن نعرف من هو ذلك الجندي .

إنّ معرفة تفاصيل حياة أولئك الناس تكشف لنا عن أشياء كثيرة ، ولكنها لا تزيد أو تنقص في قدر أعمالهم وقيمتها .

والفنانون المبدعون يختلف مصيرهم الاختلاف كله عن مصير المقلدين المزيفين .

وحذاق الموسيقيين والممثلين ومهرة المصورين يعيشون ما بقيت أشخاصهم ويتردد رنين أصواتهم . فمن كل الموسيقيين الذين كان قومهم يفتنون بهم لا نجد إلا واحداً منهم قد نشر إسمه بالخلود . ذلك هو « باخ » (١٧٨٢ — ١٨٤٠) وهو عارف الكمان الذي طاف أوروبا يعزف ألحانه . ولقي نجاحاً في كل بلد حل به . ذلك لأن صاحب هذا الاسم كان إذا عزف . سحر النساء بعزفه . وكان يغمى عليهن إذا سمعن ألحانه .

قالت العازفة الشابة : من ثم يتبين أن ليس من مستلزمات العظمة أن يكون صاحبها من أولئك الذين يحيون حياة تتفق والخلق الكريم .

الفيلسوف : نعم إن ذلك ليس من مستلزمات العظمة . فتنصت كلتا المرأتين الصمداء وذلك على الرغم مما بينهما من تفاوت وتباين .

ثم يستطرد الفيلسوف يقول : إن هناك بالطبع شيئاً اسمه « العظمة الخلقية » . ولكن العظمة — بادئ ذي بدء — ليس الخلق من شرائطها الأولى .

التاجر : إنك لن تستطيع أن تسمي عظيماً رجلاً ذا خلق . فخلقه وحده . فإن عامل اللاسلكي الذي لا يغادر سفينته التي ضربت « بالطوربيد » حتى يقضي القضاء أمره لا يسمى عظيماً .

الفيلسوف : لك أن تسميه — ان شئت — بطلاً . ولكن لن يسمى — بأية حال — عظيماً فهناك أبطال كثيرون ليسوا — في الحقيقة — عظماء . وهناك عظماء كثيرون ليسوا أبطالاً . فالجندي الذي أنقذ بفضل شجاعته وذكائه حياة ثمانين من إخوانه في معركة « دنكرك » يستحق وساماً . ويتأهل أن تؤلف الإشادة باسمه أغنية . بل قد يستحق أن يقام له تمثال . ولكنه لن تظهر صورته أبداً في ساحة العظماء .

دولفي : وماذا تقول في عظمة الرجال ذوي الذكاء ؟

— إنهم بعيدون عن أن يسموا عظماء . وأني أنكر — في قوة وإصرار — هذه الدعوى . فالقول في عراكه مع العمل ليس دائماً منتصراً . فإن القتيل الذي نعرفه عن « الاسكندر » كرجل من رجال الفكر ليس السبب في كونه عظيماً .

قالت العازفة في صوت خريد : ولكن الاسكندر كان فتى جميلاً !

فقالت لها صاحبتها : جميل ! لقد أبدعت . ولقد بعد مرور حياتك وعى هذا فإن أي نجم من نجوم الشاشة البيضاء يمكن أن يسمى عظيماً !

الفيلسوف (ضاحكاً) : إن الناس على أية حال يظنون ذلك . ولكن إذا جاء فاتح من الفاتحين وكان له جمال « الاسكندر » فإن هذا الجمال يكون حتماً جزء من عظمته . فهو بجماله كالله يقدم الأغاني والشعر الوجداني لكل القطع الموسيقية التي عزفها في حياته .

الطفل : ومن هو الاسكندر ؟

الفيلسوف : هل سمعتم ما يقوله الطفل ؟ إنه قد أنصت لأنه سمعنا نتحدث عن رجل جميل .

التاجر : إذن حق لي أن أفترض أذن لك أن تقول : ان الرجل الدميم لا يمكن أن يكون رجلاً عظيماً .

الفيلسوف : لقد كان كثير من العظماء دميمي الخلقة أنظر الى صورتي فولتير وداتني فقد كان لهذين الرجلين أمارات من النبوغ تبدو على وجهيهما . أمّا سقراط فقد كان في فرط دمامته يشبه برنكليس في فرط جماله .

ثم وقفوا جميعاً وبدأوا يمشون هوناً على الشاطىء مولّين وجوههم شطر الشمس الغاربة وكان الطفل يسبق القوم حيناً . وحيناً يمشي وراءهم . ولكنه يعود دائماً ليمسك بيد أمه .

الفيلسوف : إن الشمس صارعت العظماء كلهم فصرعتهم فماتوا وعاشت بعدهم . وهي تبدو كل يوم كأنها أوشكت على الفناء . وإذا بها تولد كل يوم مرة أخرى .

التاجر : دعني ألخّص القضية : إنك قد بيّنت لنا إلى هذه اللحظة أنّ العظمة إنما تتمثل في الروح البانية لدى السياسي . وفي الروح المبدعة لدى الفنان . وفي الحالة الأولى نرى ان الشخصية هي قوام العظمة وملاكها . وليس الأمر كذلك في الحالة الأخرى .

فما قوام العظمة وملاكها لدى الروّاد والمكتشفين والمخترعين ؟

فصاحت « دوللي » : هذا سؤال جدّ عسير . وقد أمسكنا أخيراً بخناقك !

فضحك القوم كلهم . وضحك الفيلسوف لضحكهم . ثم أجاب في هدوء وتؤدة : ما الذي أصار « كولومبس » شخصية عالية . ولم يضف هذه الصفة على « فاسكودا جاما » ؟

فلو أنّ شخصاً مجهولاً كان أوّل نازل بأرض «سان دومنجو» لكان الظن به ـ أكبر الظن ـ أن يصيبه ازكام وأن يبنى له نُصُب ينقش عليه: «مكتشف أمريكا».

وقد صار «كولومبس» الشخصية الحيّة التي يعرفها كل طفل في هذه الدنيا عن طريق قصته التي هي بالأساطير أشبه. فقد نشأ فقيراً يكسب بضع دراهم. ثم شبّ فصار شاباً مغموراً يسافر إلى بلاد بعيدة تلازمه أحلامه الضخمة. ثم ظلّ بعد ذلك عشرين عاماً يطارد القوم ويلاحقهم ـ في إلحاح والحاف ـ بمشروعاته الخيالية. ثم اذا هو آخر الأمر يستطيع أن يسحر لبّ أقوى ملكة في زمانه حتى لتنزل لهذا المغامر عن حليّها. وحتى لتستودع هذا المخاطر بواخرها وحتى تمنيه بالثروة والجاه.

ثم يسافر هذا المغامر فوق متن البحر. ويكتشف أرضاً وهو لا يعرف أنّه قد اكتشفها. ثم يعود فيصبح سيّداً من أولي المجد. ثم يوشى به ويفترى عليه. ثم يسلك في السلاسل والأغلال. ثم يموت يوم وافته منيّته مجهولاً من الناس كلهم. بل جاهلاً هو أنه قد اكتشف ما اكتشف.

إنها هذه الصورة التي تصوّر عظمته. وهي قصةٌ يتوجها الخطأ!

العازفة: ما أبدع هذا الوصف؟ لكأنّك شاعر من الشعراء!

فضحك الفيلسوف وقال: لتمنيت أن لا أكون شاعراً. ذلك لأني أنظر في الصفحة الأخرى التي تناقض الشعر. إني أنظر الى الصدق!

دولي: نعم! نعم! ولكن ما قولك في الرواد عندنا. هل تقول أنهم لم يكونوا عظماء؟

— بل كانوا رجالاً بارزين. ومع ذلك فلم يشتهر منهم أحد.

التاجر: وعلى هذا فأنت تجعل الشهرة صنواً للعظمة؟

— إنما أقول أنّ الشهرة آخر الأمر أي في غضون أجيال تحدّد مكانة أعلام الرجال. إنّ نبوغ رجل من النوابغ قد يظل مذكوراً لجيل أو جيلين. ثم إذا بهذا النبوغ يُعرف قدره، ويشتهر بين الناس أمره. حدث هذا «لكوبرنيكوس» و«لجاليليو» اللذين كانا عند الناس في عداد القوم الضالين المضلّين.

وكان هذا نصيب كثيرين من رجال الفنون بل من النبيّين.

إنّ كثيراً من الرجال أولي الفضل ينالون من قومهم فوق ما يستحقون من قدرهم ينسون بعد حين . وإنّ آخرين منهم لا يقدرهم قومهم حق قدرهم . ثم يُرفع قدرهم بعد حين. وهذا ما يفسر لنا العزلة التي يسعى وراءها ذوو الفضل من الرجال . حتى أولئك الذين يقومون على خدمة الجمهور . بينما نرى أناساً هم في المقام الثاني يفرّون من العزلة ويهربون . ودليل هذا قائم في المقارنة بين « شارل الخامس » . وكان أقوى ملك في زمانه . وبين « سيزار بورجيا » فان الأول كان حليف عزلة . بينما الآخر — وقد كان مدخول النسب — كان لا همّ له الاّ أن يرى الأيدي تصفق له . وألاّ أن يسمع الألسن تهتف باسمه وتمجده

التاجر : وماذا تسمي أولئك الرجال الذين قدرت أعمالهم الجيدة حق قدرها وهم أحياء ثم لم يمجد فضلهم وقد غيّبتهم القبور ؟

الفيلسوف (مبتهجاً) : إني أسميهم رجالاً محظوظين . ولو أنك سألتني من هو الرجل العظيم الذي استمتع بالوجود الكامل في حياته . والذي ظلّ اسمه مذكوراً طوال الدهور لقلت . . .

قالت العازفة : انه لورد بيرون ؟

قالت المدرّسة : بل هو اوغسطس ؟

الفيلسوف : قد يمكن أن يكونا كذلك لولا ما غشى أيامهما الأخيرة من عتمة وظلام . والرأي عندي أن العبقري الكامل هو « تيتيان » (١٤٧٧ — ١٥٧٦)

التاجر : إننا لا نعرف من أمر صاحبك هذا شيئاً .

وقالت المدرسة (وقد بان عليها الغضب) : اذا كان الأمر كما تقول فلماذا لم تكتب تاريخ حياته ؟ .

الفيلسوف : ذلك لكي لا أفقده ! وعلى أية حال فقد كان هو واحداً من أولئك المصورين العظام . القلائل الذين أعجبهم العالم . بل قد يكون أعظمهم . وهو في الوقت نفسه قد عاش كواحد من الملوك . بل هو قد جعل الملوك تُحسّ أنّه أعلاهم مقاماً . فقد كان نابغاً في فنّه . وقد كان نابغاً في حبّه . وقد كان نابغاً في بعد صيته .

مثل هذا الرجل يذكّرني بتلك الأشجار الهائلة الضخمة التي تقوم في الغابة كالحصون

وهي تَطلّ من أعاليها على نجوم الغبراء التي لا تقوم على سوق .

ومن نجوم غابتنا ـ أي هذه الدنيا ـ ظلت طوال حياتي أرقب هذه الأشجار الهائلة الضخمة . وذلك منذ رأيتها أول مرّة في « أفريتيا » وهي شاهقة الذرى . ومذ كنت أرى طائراً ضخماً يطير من شجرة الى أخرى حيناً بعد حين .

التاجر : ولماذا لم تتفقد عنهم يوماً من الأيام فيما بيننا . وفي عقر دارنا ؟

الفيلسوف : لقد فعلت ووجدت أعظم رجل قابلته في حياتي .

دوالي : ومن كان ذلك الرجل : هل كان الرئيس ولسن ؟

العازفة : هل كان « بدروفسكي » ؟

التاجر : بل هل كان « هنري فورد » ؟

وعندئذٍ صاح الطفل وهو يردد إسم « هنري فورد » . ذلك لأنه كان يعرف الاسم .

الفيلسوف : لقد عرفت الثلاثة . ثمّ توقّف الفيلسوف عن القول ونظر إليه القوم آملين راجين .

وظلّ هو ساكتاً يستمتع بما أثار فيهم من تطلّع . ثمّ تكلم فقال : إنه كان « توماس إديسون » .

قالت « دوالي » وقد خاب أملها : تقول من ؟ ولكن لماذا يكون اديسون ؟ ألِأن إسمه يذكّرنا بالمصباح الكهربائي . وبالفونغراف . أو لأنه قد يكون لصاحب هذا الاسم بعض العلاقة بجهاز الصّور المتحركة . وربما بالراديو ؟

ـ كلاّ ! فلا دخل للمصباح الكهربائي أو الفونغراف . إنّ شخصية « إديسون » كانت من ذلك النوع القوي المتسلط الذي يخضع له كل من تربطه به صلة .

وهو كرجل تقدّمت به السن ـ يوم رأيته ـ كانت تلوح على ملامحه العظمة . فرأسه الوقور الذي اشتعل « شيباً » . والذي لم ينجُ من أثر السنين . بل زاده تقدم السن رفعة واعتزازاً . وضحكته التي هي بضحكة الشاب أشبه . وصوته الجهوري الذي ينبثق عن صدر صاحبه . والتزامه المألوف في كل شيء . وبهجته التي يشعّ تلألؤاً وضياء . كل أولئك يكفي لو كنت رأيته جالساً على الرمل عند غروب الشمس دون أن أعرف من كان هو . حتى

لأرى نفسي مدفوعاً الى السؤال : من هو ذلك الرجل الكامل ؟

إنّ خيالنا يوجد تلازماً بين هذا الرجل العظيم وبين جميع الاعمال التي نفكّر فيها. وكذلك بينه وبين صنوف الكفاح التي تغلّب فيها على خصومه. وكذلك بينه وبين ومضات الفكر الوضّاءة التي أضاءت العالم. ولن يجد الباحث شيئاً من هذا عند « هنري فورد » أو « بدروفسكي » أو « ولسن » وكلهم قد قاموا بأعمال جليلة في عصرنا هذا.

التاجر : وما رأيك في « باستور » ؟

العازفة : وما رأيك في « دارون » ؟

الفيلسوف : رجلان من العظماء. ومع هذا فإنّ مجدهما لا يرجع الى ما اكتشفه كلاهما أو اخترعه. فإنك لن تجدي الاّ رجلاً في كل عشرة آلاف قد قرأ شيئاً عن أعمالهما. ولكن اللبن المعقّم على طريقة « باستور »، وتلك النظرية المزعومة التي تقول إنّ الانسان من سُلالة القردة قد تأثّر بهما خيال الملايين من الناس. بينما « كوخ » و « لامارك » اللذان يكادان يدانيهما عظمة لم يوهبا شهرتهما.

دوللي (وهي تهزّ كتفيها) : كل هذا ظاهر عندي الى أبعد حد.

الفيلسوف : وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟ وقد نطق الفيلسوف هذا القول بلهجة التوكيد. ذلك لأنه كان يقصد الى كسب رضى المستمعين اذا لم يستطع إقناعهم الاقناع كله.

ثم استطرد يقول : إنّ الذي يهزّ مشاعرنا كلما عند التحدث عن العظمة هي الاعمال الانسانية. إننا نرى صورة أنفسنا منعكسة في صورهم ذلك لأن كل واحد منّا يجدّ ويسعى لمثل ما جدّوا وسعوا. ولكن مع الفارق في القياس. فعامل المصعد عندما يقرأ كيف ارتقى « لنكولن » يعلم أنه سوف يصير مدير فندق في بضع سنين

التاجر : إننا بصفة عامة نرى صورنا منعكسة في صور معاصرينا فمن من زعماء عصرنا تحسبه عظيماً ؟

الفيلسوف : لست أستطيع الجواب عن هذا قبل عام ٢٠٠٠ عندما نعود الى هذا الشاطىء ذلك لأن المحيط الهادىء لن يناله التغيير إلاّ قليلاً فتشابك العقول اليوم يجعل

من الصعب أن تفسّر أعمال كل فرد تفسيراً نستريح اليه.

دولي (ضاحكاً): ولماذا تولاك الحرص والحذر بغتةً فقلتَ كلمة صريحةً ولا تخف! أتحسب «تشرتشل» رجلاً عظيماً؟

الفيلسوف: لن يستطيع أحد الجواب قبل أن يعرف أولاً كل الأسانيد المدعمة التي لاتزال سرًّا غامضاً وأن يضمّ اليها أوراق «تشرتشل» الخاصة وكذلك قبل أن يعرف الموتة التي سوف يموتها

فإن حياةً بغير فصل ختامي إنما هي جزء من حياة لاحياةً كاملة، مثلها في ذلك مثل تمثال لم يتمّ نحته أو مثل رواية لم تتم فصولها، فمن يعرف كيف كان يسلك «ولسن» في عداد العظماء لو أنّه كان قد قتل في نوفمبر من عام ١٩١٨؟

العازفة: إذن أنت تعتبر الموت جزءاً من الحياة؟

— بل اعتبر الموت أكثر من ذلك إنّه المفتاح لفهم حياة الرجل

التاجر: (في لهجة الشك): إذن فالأمر عندك أن كل شهيد يمكن أن يكون رجلاً عظيماً

الفيلسوف: كلاّ! إنّ المسيح لم يكن عظيماً بسبب صلبه وإلاّ — لو صحّ هذا — لكان ضحايا النازي الأبرياء كلهم عظماء

إنّ المسيح كان عظيماً ذلك لأنه كان يعظ الناس ويهديهم الى سواء السبيل، وليس ذلك فحسب، بل لأنه كان يعمل بما يوصي به. وقد ضحّى في سبيل ذلك بحياته. وقد يكون سقراط أعظم تضحية ذلك لأنه مات بمحض ارادته. ليضرب للبشرية الأمثال. وقد كان سقراط يستطيع أن ينجو. أما المسيح فلم يكن له خيار في الأمر. وكذلك كان قتل «الرئيس لنكولن» في الساعة التي كسب فيها الحرب سبباً في كسب قلوب قومه وقلوب خراديهم.

التاجر: وماذا ترى في غاندي؟ أليس هو أيضاً يشبه الى حدّ ما نبيًّا كعيسى ومحرراً «كلنكولن»

— نعم هو كذلك. ولكنه لا يزال حيًّا (كان ذلك بالطبع قبل قتل غاندي) فاذا قدر عليه أن يموت في أثناء نوبة من نوبات اضرابه عن الطعام فان الجنود قد يتخذونه الهاً.

ولكنه لو ساء حظه فتولى رئاسة الحكومة فانه سوف يكون باعثاً خيبة الأمل عند كثير من أتباعه ومريديه . فعاندي يراه الناس في خارج الهند عظيماً ذلك لأنه ابتدع قاعدة تمت إلى الدين بصلة قوية وهي قاعدة « عدم العنف » وهو بسبب هذه النظرية يسلك في عداد الرجال « العظماء »

دوللي : ولماذا لا تتكلم إلاّ عن الرجال كأنّ ليس بين النساء عظيمات ؟

الفيلسوف : ذلك لأن العظمة بين النساء هي أقل وأندر وهي أكثر تعقيداً من العظمة عند الرجال . إن عظيمات النساء في التاريخ قد روعي في قدر عظمتهن أنهن نساء، فالجنس هو الذي أوحى بالحكم لهن بالعظمة وليس كذلك الحال ـ في الأعم الأغلب ـ مع العبقريين من الرجال، فالملكات وحظايا الملوك اللائي نعرفهن خير أمثلة على هذا القول « فكاترين » الكبرى قد تأثرت بحياتها الجنسية أكثر مما تأثر بها عدوها «فردريك الأكبر» ولو أنه كان ذا شذوذ جنسي وكان لذلك أكثر تأثراً بالمسألة الجنسية أكثر من الرجل العادي

المدرّسة : ألا ترى أنه كانت هناك بضع نساء عظيمات من المجاهدات ؟

الفيلسوف : إنك تجدين منهن في الأمم التي تغلب عليها العاطفة كالفرنسيين والروسيين وأنك لن تجدي بين الانجليز الكسونيين فتاة « كجان دارك » أو « شارلوت كورداي »

وإني لتعجبني المرأة التي ترفع السلاح . أو تحمل السيف دفاعاً عن الحرية أكثر مما يعجبني الرجل . ذلك لأن نصيبها من العذاب في ذلك يكون ضعفين . وذلك لأن حمل السلاح ليس من تقاليد النساء .

وهذا القول يذكر القارئ العربي بقول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

العازفة : وأولئك النسوة اللائي كن عظيمات في فنون الحب ؟

فتبسم الفيلسوف وقال : إن المرأتين اللتين قد فتنتا قومهما وذراريهما أكثر من غيرهما (وهما « كليوبطره » ـ وهي أشهر من أن تعرف ـ « ولينو دي لينكلو » ـ ١٦٢٠ ـ ١٧٠٥ ـ وهي التي فتنت « ريشيليو » بذكائها وجمالها) قد كان الحب الدافع لهما والموحي إليهما . وقد كان بين النساء بضع شاعرات وبضع مصورات . ولكنهن لن يمكن

أن تصح المقارنة بينهن وبين معاصريهن من الرجال .

فقالت دولفي لصاحبتها : أرأيت كيف يجعلنا في المقام الثاني ؟

. الفيلسوف (ضاحكاً) : بل بالعكس فإنكن في المقام الأول ! ذلك لأن معظم النساء يعرفن الطريق التي تشعر الناس بقوة نفوذهن وعظم سلطانهن . وهو ما لا يستطيعه إلا القليل من الرجال . ولذلك فإن النساء لسن بحاجة الى العظمة أكثر من حاجتهن الى الجمال والفتنة والجاذبية . ففي كل العصور كان النساء هن الملهمات للرجال . ولكننا لا نعرف إلا القليل مما أوحين به . ذلك لأنهن يعملن أعمالهن خلف أبواب مقفلة . ولم يتسرب إلينا إلا بضع قصاصات مما أفضين به — في ساعة من ساعات الزق — لأصحابهن . أو مما بحن به بدافع من غرورهن .

فيوم سخت « كليوباترة » لنفسها أن تنطوي في بساط . وأن تحمل الى قيصر الذي غزا بلادها . وفتح عاصمة ملكها . وأن تخرج من بين طيات البساط . إنما كان هذا منها لمحة من لمحات عبقريتها . وتلك اللمحة هي عندي بمنزلة اكتشاف « كولومبس » لأميركا .

والمرأة لم تكن حقاً عظيمة في يوم من الأيام إلا في ميدان حياتها الخاصة . ولهذا كان من الصعب جداً أن نعد النساء العظيمات .

ولذلك فلست تجدهن عادة إلا في الروايات والصور حيث يقوم واحد من الفنانين — بوحي من عبقريته — فيخلدهن .

إن صوت المرأة الحريد الملهم لا يسمع إلا في الخفاء .

* * *

ثم مالت الغارقة على الكمان أن مالت على وليدها . وهي تشير الى الشمس الغاربة وتقول : انظر . إن المساء قد أقبل . وإن الشمس العظيمة لتحيينا تحية الوداع .

فمد الطفل ذراعيه نحو النور وهتف قائلاً : امنعوا الشمس أن تغيب !

(من الانجليزية) مبارك بن لهيم